اكتسب الصراع مع إسرائيل شكل صراع على كسب رضى المركز (بريطانيا ثم الولايات المتحدة) وتوسيطه حكماً ومطالبته بالعدل (الضغط للحصول على معاملة متوازنة). ونجد في تصريحات عدد من الزعماء العرب، الحاليين والسابقين، آلاف الشواهد التي تحتج على انحياز بريطانيا، ثم الولايات المتحدة، إلى اسرائيل، ومطالبتها بموقف متوازن من الطرفين، العربي والاسرائيلي، باعتبار العرب اصحاب حق (وكأن الأخلاق عامل في السياسة)، بل دعت الأنظمة العربية إلى زيادة مصالح الولايات المتحدة لدى البلدان العربية للتقف إلى جانب العرب دفاعاً عن مصالحها، وهو ما عُرف تحت عنوان «دق اسفين بين الولايات المتحدة واسرائيل». ومحاولات خروج بعض الأنظمة العربية عن هذا النسق رُدت، ودفعت إلى داخله، طوراً بالعصا الاسرائيلية وطوراً آخر بالاخاء العربي[٦]، مع ملاحظة أن ظواهر الاندفاع للخروج من هذا النسق لم تكن نفسها محصنة. والحصانة تقتضي تبني النقيض بدءاً بالأيديولوجيا وانتهاء بالسياسة. وهذا ما لم يحصل مع أي من حركات التحرر العربية أو الأنظمة التي خلعت عن نفسها صفة الراديكالية، سواء الوطنية أو الاجتماعية.

الفلسطينيون جزء من النسيج العربي، فكراً وتاريخاً وبنى، وحركاتهم السياسية (نشاط النخبة) محاكاة للحركات السياسية العربية وامتداد لها، حيث نمت الأولى في أحشاء الأخيرة: لكنها فصلت حبلها السري بها مع تصاعد وضوح خط التسوية العربي مع اسرائيل (هدنة، إزالة آثار عدوان، فك إرتباط، سلام عادل ودائم)، وازاه كانعكاس عربي على الوضع الفلسطيني (نكبة، ابراز الشخصية الفلسطينية، حق التمثيل، حق تقرير المصير). ولا نرى ان هناك انفصالاً بين حركة التحرر الوطني الفلسطينية وحركة التحرر الوطني العربية، إلا ان ما ميز الفلسطينيين أمران:

١ ـ إفراط في الحساسية والحذر.

٢ ـ بروز ظاهرة التفرد داخل الوحدة التي هي نتاج حياة الشتات والصراع من أجل البقاء. لكنها ظلت تراوح داخل نفس الاطار العربي المشدود إلى المركز الراسمالي، مع ملاحظة أن الاطار العربي يرفض احتواء «البكتيريا» الفلسطينية بشروطها لانها غير قابلة للتطويع في إطار التسوية مع إسرائيل التي هي جزء من المركز الراسمالي. وظلت حركة التحرر الفلسطينية ترى «أن مصلحة قضيتنا تتطلب أن نكون آخر المتكلمين»[٧].

عدم قابلية «البكتيريا» الفلسطينية للتطويع، العربي والدولي، نابع من طبيعة واقع الفلسطينيين بعد النكبة، وإقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين (وهذا مغاير لوضع ما قبل النكبة). فالنخبة الفلسطينية، التي هي من نفس نسيج النخبة العربية (مع ملاحظة النقطتين آنفتي الذكر)، غير قادرة على صياغة علاقاتها بالشعب الفلسطيني على النمط العربي السائد (مشكلة الجغرافيا)، كما أنها تتنافس معه على تلك العلاقة؛ لذا فهي مضطرة إلى اعتماد الحوار والاقناع مع الشعب الفلسطيني، بالضرورة، لاجتذابه لمشاريعها السياسية، واخراجه من دائرة الهيمنة العربية. والفلسطيني نفسه ليس كالعربي: فخلال حياة النفي خارج ارضه، اضطر إلى البحث عن التمايز النوعي عن شقيقه العربي في إطار الصراع من أجل الحياة، والانتهاء من «ذل» اللجوء واستجداء وكالة الغوث، فتفرد وانفرد في مناخ عالم «الرتابة» العربي. هذا الوضع الفلسطيني، لجهة النخبة والشعب، ولّد الابداع الفلسطيني في العمل السياسي لاحياء شخصيته الوطنية.